

عبد الغني باحقي

١٣٥١
(٢٤)

أبي فراس و أبي الطيب

بحث وتحليل وموازنة

وهي الرسالة التي اجتز بها مؤلفها امتحان شهادة الآداب العليا
في الجامعة السورية

سنة ١٣٥١ - ١٩٣٢

تطلب

من مكتبة الشرق بدمشق لصاحبها محمد عدنان الجزائري وأخيه

« حقوق الطبع محفوظة للمؤلف »

١٣٥١ هـ مطبعة ابن زيدون ١٩٣٢ م

عبد الغني باحقي

٢٢٥
٢٢٤

أبي فراس و أبي الطيب

بحث وتحليل وموازنة

وهي الرسالة التي اجتاز بها مؤلفها امتحان شهادة الاداب العليا
في الجامعة السورية

سنة ١٣٥١ - ١٩٣٢

و حقوق الطبع محفوظة للمؤلف ،

١٣٥١ هـ مطبعة ابن زيدون ١٩٣٢ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إلى ناشئة الأدب العربي ، إلى من بأيديهم نهضة العربية وتعالها وآمال العروبة وأمانها أقدم هذه الرسالة التي اجتزت بها امتحان شهادة الآداب العليا ، وهي أول مؤلف لي في هذا الموضوع الجليل ، فاني وإن كنت قد ألفت قبلها عدة رسائل مدرسية في قواعد اللغة وإنشائها والتاريخ والجغرافيا فلم أكتب في الأدب قبل هذه المرة لعلمي بسعة مجاله وترامي أطرافه وشعوري بالحاجة إلى دراسته على الطريقة التحليلية الحديثة ، حتى إذا انشيء معهد الآداب في الجامعة السورية سنة ١٩٢٩ م سارعت إلى الانتساب إليه سعياً وراء الوصول إلى الحاجة التي كنت أشعر بها مع ضيق أوقاتي المنفقة في القيام بأعباء وظيفتي وبما تحتاج إليه مؤلفاتي المدرسية من إعادة النظر والتقيح والإشراف على الطبع ، فكنت أختلس الوقت اختلاساً لمراجعة دروس المعهد ومحاضراته وأجتاز الامتحانات السنوية في دوراتها الأولى إلى أن كانت السنة الثالثة فقوجت في آخرها بأمر مبرم يحتم علينا وضع رسائل أدبية كمرحلة أولى في طريق الامتحان النهائي وكان يشمل مواد السنين الثلاث ، فوضعت رسالتي هذه في خمس عشرة ليلة فقط ، وهي مدة قصيرة لم تكف للاحاطة بالموضوع من جميع نواحيه وهو الفخر في شعر أبي فراس الحمداني وأبي الطيب المتنبي ، فأرجو من يطلع عليها أن يراعي عذري فيعذرني إذا ما ألقى شيئاً من النقص في البحث والاستقصاء ، ولا سيما إذا راعى فقدان المصادر بالنسبة إلى الشاعر الأول الذي غمط الأدباء حقه من الكلام

عليه والبحث في شعره كما تكلموا على غيره من الشعراء وبحوثوا في
أشعارهم ، كأن الشهرة العظيمة التي نالها معاصره أبو الطيب كوّنت
ستاراً كثيفاً بينهم وبينه ، فلم يلمحوا من خلاله إلا اليسير من فضله ،
على أنهم لو احترقوا هذا الستار بأبصارهم لشاهدوا خلفه عبقرية لشاعر آل
حمدان في الفخر وفي العواطف لم يظاوله فيها كثير من الشعراء ، وهذا
ما أهاب بي إلى الاقدام على الكتابة عنه ولكن في الفخر وحده مع
مقابله بفخر أبي الطيب ، وإلى عقد الية على شرح ديوانه وإظهاره بين
المطبوعات الأدبية بحلة قشبية إيفاء بأقل ما يستحقه هذا الشاعر الشريف
ومساعدة لمن ستحدثه نفسه من الأدباء بزيادة البحث والاستقصاء ؟

دمشق في ١٠ المحرم سنة ١٣٥١ عبد القني باهقني



أبو فراس
وأبو الطيب

أبو فراس الحمداني وأبو الطيب المتنبي من أشهر الشعراء
الذين نشؤوا في العهد العباسي ، عاشا في عصر واحد وهو
العصر الرابع للهجرة ، واجتمعا مدة غير قصيرة في مكان
واحد وهو مجلس سيف الدولة بحلب ، وكانت لهما فيه مواقف
مشهورة ومعارضات شديدة جرهما إليها تعاظم أبي الطيب من
جهة وبغض أبي فراس له من جهة أخرى ، وقد طرق كلاهما
باب الفخر على اختلاف صفاته وصوره في عصر أمست فيه
هذه الناحية من الشعر مهمة بعد أن كان حظها عند الشعراء
المتقدمين موفوراً ، لذلك أحببت أن أكتب في فخر هذين
الشاعرين كتابة أسلك فيها سبيل التحليل والموازنة : فأبحث
عن العوامل التي حملت كلا منهما على الفخر ، ومنشأ هذه
العوامل ، والصفات التي قصدا إليها في شعرهما ، والأساليب التي
سارا عليها والألفاظ التي استعملوها فيه ، ولكنني رأيت قبل
الدخول في البحث مباشرة أن أقدم كلمة في نشوء الفخر عند
العرب والأمور التي كانوا يرفعون من شأنها وبعدها مفاخر
يتباهون بها ، لأن ذلك من جملة الأمور التي سأستعين بها عند
البحث ومن أهم المقاييس التي سأستند عليها في الحكم .

الفخر

الفخر مدح يخص المرء به نفسه وقومه مُباهاةً بكرم
العنصر وقوة العصبية ومنعة الجانب والشجاعة والكرم والإباء
والوفاء والمروءة وغير ذلك من المزايا والخصال الشريفة التي
كان شأنها عند العرب عظيماً والتباهي بها مألوفاً جارياً على السنة
شعرائهم وفي مجالس مُناقراتهم لا يرون فيه عيباً ولا يعدونه
غروراً ، لاسيما إذا أُبد بذكر المآثر والوقائع ، حتى لقد
يغتفرون فيه المبالغة ويستمرثونها إذا لم تكن بعيدة عن
الحقيقة والواقع ، ولا غرابة في ذلك لأن الأخلاق
في جميع الأمم إضافية (نسبية) : فما حسن منها فهو الحسن
وما قبح منها فهو القبيح عند تلك الأمة ، ولا قيمة لنوع
اعتبارها عند الأمم الأخرى ، لأن أوجه النظر إلى الأخلاق
مختلفة بسبب اختلاف المدارك العقلية والقابليات النفسية ونمط
الحياة الاجتماعية ، اللهم إلا ما وقع عليه الإجماع وحكم به
العقل المطلق .

الأخلاق
إضافية

فالأخلاق ومثلها العادات تسير عند كل أمة مع حاجاتها
وصور معيشتها جنباً إلى جنب ، ألا ترى الكرم عند العرب
مفخرة من أعظم المفاخر التي يتباهون بها وليس له هذا الشأن
عند الأمم الأخرى التي تختلف عن الأمانة العربية في شكل

الحياة الطبيعية والاجتماعية ؟ ثم ألا ترى الميسر عند عرب الجاهلية
فضيلة يتفاخرون بها ويمدحون عليها ؟ وما ذلك إلا لأنهم
يعدونه نوعاً من الكرم وداعياً الى انتفاع الفقير :

وهم أيسار لثقات إذا أغلت الشتوة أبداء الجزر^(١)

ولكن لما جاء الإسلام بأحكامه التي هذبت حياتهم
الاجتماعية أبطل هذه العادة بعد أن بين أن إثمها أكبر من نفعها .
عاش العرب في بلاد غير ذات زرع في الجملة ، قلت
مياها وجف هواؤها ، فكثرت بسبب ذلك أراضيها المجربة
وقلت بقاعها المخصبة ومدنها المتحضرة ، ومن ثم كان جلهم
بدواً يعيشون تحت الخيام على تربية الإبل وغيرها من المواشي ،
يتخذون من لحومها وألبانها طعاماً ، ومن أصوافها وأوبارها
وأشعارها أثاثاً ومتاعاً ، يتربصون^(٢) مواسم الغيث ويرحلون
في طلب المرعى ، اللهم إلا سكان المدن كصنعاء وعدن
ومكة وبثرب والحيرة وبصرى فقد كانوا على جانب غير
صغير من الحضارة ورفاهة العيش .

بلاد العرب
وأثرها في أهلها

ولدفهم هذا النوع من المعيشة الخشنة الكرم والشجاعة

(١) الأبداء جمع بدم وهو النصيب من الجزور .

(٢) يتربصون ينتظرون .

والإباء وشدة الغضب عند جرح الكرامة أو انتهاك الحرمه .
وأعانت طبيعة بلادهم الهادئة التي تملأ النفوس روعةً وجلالاً
على تهذيب شعورهم وشحذ أذهانهم وثقوبة حافظتهم ، حتى صاروا
مطبوعين لا يتكفون ، وأصبح كل شيء لديهم بديهية وارثجالات .

نشأة العرب
الاستقلالية

وعودتهم نشأتهم الاستقلالية الاعتداد بأنفسهم والتمسك
بجريتهم الفردية التي لا حد لها :

ولكن نفساً حرة لا تُقيم بي على الذأَم إلا ريثما أتحوّل
حتى صاروا ينفرون من السيطرة ويأبون الانقياد ، لأنهم
يرون فيه عبودية لا يرضونها إلا مع الضيف :

وإني لعبدُ الضيف ما دام ثاوياً وما في إلا تلك من شيم العبدِ

وأصبحت القبيلة عندهم الوحدة التي يركز عليها نظامهم
الاجتماعي ، فكانوا فيها متضامنين كل التضامن ينصرون أخاهم
ظالماً كان أو مظلوماً :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

وكانوا متعصبين لها أشد التعصب ، يعتصمون بحبلها

ويجرحون على التزام طريقتهما :

وهل أنا إلا من غزبة إن غوت غويت وإن ترشد غزبة أرشد

علا عندهم شأن الكرم والشجاعة والسؤدد ، حتى صارت
هذه الأمور الثلاثة مدار نخرهم والمثل الأعلى الذي نصبوا إليه
نفوسهم .

أما الكرم فكان يتجلى في منح المئات وتحمل الديات ^(١)
وفي نحر الجزر للضيوف وإطعام الفقراء أيام الجذب وليالي القر .
وأما الشجاعة فكانت تتجلى في ميادين القتال ومواقف
النجدة والذب عن الحرمه والدفاع عن القبيلة والإغارة على القبائل
المعادية ، حتى صارت الحرب نظامهم المتبع وحياتهم المألوفة .
وأما السؤدد فكان يتحقق في الانتساب إلى بيت رفيع
العماد ، اشتهر رجاله بالسيادة على قومهم أو بماثرهم الحميدة في
مواقف النجدة ومواطن الكرم واصطناع العشيرة واحتمال
الجريرة - إلى غير ذلك من الأمور التي تشرّف أصحابها وتعلي
منزلتهم في نفوس القوم .

علا عندهم أيضاً شأن الشعر والشعراء لأنهم وجدوا الشعر
صالحاً لتخليد مآثرهم ، ووجدوا الشعراء حِصاة عن أعراضهم
وأحسابهم ودعاة لنشر أمجادهم ومفاخرهم .

(١) تحمل هرم بن سنان والحارث بن عوف وحدهما ديات القتلى في
حرب داحس والغبراء وكانت ثلاثة آلاف بغير ١١١

الفخر الصادق
الفخر الكاذب

أكثرُوا من الفخر بالكرم والشجاعة والوفاء وطيب العنصر
ومنعة الجانب وعزة الجار وغير ذلك من الخصال الشريفة
والصفات الحميدة حتى امتلأت بها أشعارهم ، وكان منه الفخر
الصادق المطابق للحقيقة أو القريب منها ، ومنه المبالغ فيه
إلى حد الكذب المردود .

مثال الأول قول السموءل :

وفيت بأدرع الكندي إني إذا ما خات أقوام وفيت
وقول عمرو بن كلثوم :

إذا ما الملك سام الناس خسفاً أينما أن نُقرَّ الخسف فينا
فإن السموءل وفي بأدرع امرئ القيس وآثر الشكل
على تسليمها ، وإن ابن كلثوم لم يُججم عن قتل الملك عمرو
ابن هند حين أحس بأنه يحاول إزاله .

ومثال الثاني قول ابن كلثوم نفسه :

ملأنا البر حتى ضاق عنا وظهر البحر نملؤه سفينا !
لنا الدنيا ومن أضحى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا !
فإنه قد بالغ في هذا الفخر وغالى في الادعاء بمقدرة قومه
حتى كذب : فإنهم لم يملؤوا البر (إلا إذا كانت يعني به
منازلهم !) ، ولم تكن لهم في البحر سفن لا كثيرة ولا قليلة

ولم تكن لهم الدنيا ومن عليها - طبعاً !!!

ولكن نخر العرب على كل حال دليل على كبر نفوسهم واعتدادهم بشجاعتهم وتمسكهم بقوميتهم ، ودليل أيضاً على أن الخصال التي نفخروا بها كان شأنها لديهم عظيماً ولا يزال حتى الآن عظيماً ، فقد مرت القرون وتعاقبت الأجيال ولم يفتأ كل من يجري في عروقه دم العروبة يشعر بعظم شأن الكرم والشجاعة والوفاء والحلم وطيب العنصر ، ويفخر بها إن كان له نصيب منها ولو لم يستطع الجهر بهذا الفخر لأن الجهر به بات غير مألوف بيننا .

طرق شعراء العرب في الجاهلية أبواباً أخرى من الشعر كالمدح والهجاء والنسيب والرياء والوصف والحكم وغير ذلك ، وجاء بعدهم الإسلاميون على اختلاف طبقاتهم فطرقوا هذه الأبواب نفسها مع شيء من التجديد في الأسلوب والصور الشعرية تبعاً لسنة التطور ، إلا أنهم أقلوا من الشعر الفخري بعد العهد الأموي عهد العصبية القومية والعروبة الخالصة ، كأن هذا النوع من الشعر كان يسير مع هذه العصبية جنباً إلى جنب ، فلما جاء عهد الدولة العباسية وبرزت العناصر الأعجمية طرأ الانحلال على العصبية العربية وانتشرت الشعوية وسادت

الافلال من
الشعر الفخري
بعد العهد الأموي

معيشة القصور وكثرت مجالس اللهو ، فانصرف الشعراء حينئذ
إلى ما يناسب هذا التطور من الشعر : فبالغوا في مدح الخلفاء
والأمراء وفي وصف القصور والرياض والملاهي ، وطرقوا باب
المُجون والتغزل بالغلمان - إلى غير ذلك مما دعت إليه معيشة
الحضارة وحياة اللهو ، وأهملوا جانب الفخر إهمالاً كاد يكون
كاملاً لولا أن ظهر بينهم شاعران متعاصران عرضا لهذا النوع
من الشعر وذكرًا به القوم بعد أن أمسى منسياً ، هذان
الشاعران هما أبو فراس الحمداني وأبو الطيب المتنبي .

أبو فراس
ونشأته

أبو فراس هو الحارث بن سعيد بن حمدان ، كان أميراً
قبل أن يكون شاعراً ، تحدر من أسرة عربية شريفة تعلو في
نسبها إلى تغلب بن وائل ، وكان رجالها على جانب كبير من
البطولة وعلو الهمة وقوة العصبية ، وكان حمدان جده أبي فراس
قد اشتهر بالشجاعة والكرم وحسن التدبير ، وأورث أبنائه
هذه الصفات العالية فنشؤوا ذوي نفوس كبيرة تعشق المجد
وتستسهل الصعاب ، ووافق ظهورهم ضعف الدولة العباسية
ومناوأة قواد الأعاجم لها وسعيهم في بسط سيطرتهم عليها ،
فقام أبناء حمدان يناضلون عن الخليفة من جهة ويعملون في
سبيل مصلحتهم من جهة أخرى ، فاستولوا على أطراف الجزيرة

الفراتية ثم على بلاد الشام الشمالية ، فكانت منبج من نصيب
سعيد بن حمدان والد أبي فراس وحمص من حظ سيف الدولة
ابن عبد الله بن حمدان ، ثم تغلب سيف الدولة على حلب وأطرافها
فأسس فيها إمارة عربية قوية ، وأنشأ له قصرًا فخماً جمع فيه من
العلماء والأدباء والشعراء رجالاً لم يجتمع مثلهم إلا في قصور الخلفاء .

نشأ أبو فراس في هذا القصر العظيم بين علماء اللغة
والنحو وشيوخ الأدب والشعر ورجال الحرب والصيد من
الحاشية الأميرية ، فشب مبرزاً في حلتي^(١) السيف والقلم ،
جامعاً بين بطولة الشجعان وعبقريّة الشعراء ، مولعاً بالمجد
والفخر بنفسه وآله وقومه شأن أبناء الأشراف من عرب
الجاهلية ، ولما انكشفت محاسنه لنظر الأمير أعجب بآبن
عمه الناشئ إعجاباً شديداً ، فاصطنعه لنفسه وأعلى مكانه على
سائر أهل بيته ودعاه في بعض الأيام بسيدي ؛ فزها أبو فراس
بهذا المكان الممتاز الذي نبوأه دون إخوته وبني عمه وعرف
به كيف يبني مفاخره :

تبوأَت من قرمي معدّ كليهما مكاناً أراني كيف تُبنى المفاخر^(٢)

(١) الحلقة في الاصل مجال الخيل للسباق .

(٢) القرم السيد ويعني بقرمي معد ابني عمه سيف الدولة وناصر الدولة .

ولما بلغ أشده واستد^(١) ساعده نهذ^(٢) إلى الروم أعداء
بلاده وملته^(٣) يرد غاراتهم وبقائهم قتال الأبطال المدربين ،
حتى إذا وقف القتال عاد إلى قصر ابن عمه يرأس الدهوان
ويجالس شيوخ العلم والأدب .

فإذا عرفنا شرف الأسرة الحمدانية وأمجادها وعرفنا القبيلة
التي تتحدر منها وهي تغلب تلك القبيلة التي أنجبت المهمل
ابن ربيعة وعمرو بن كلثوم استطعنا أن نفهم الأسباب التي
حملت أبا فراس على الفخر وأن ندرك معنى قوله :

أعز بني الدنيا وأعلى ذوي العلى وأكرم من فوق التراب ولاخفر!

أبو فراس
والشعر

أخذت دهوان هذا الشاعر المطبوع في بيروت سنة
١٩١٠^(٤) فوقم نظري الأول على أربعة أبيات كان مستهلاً
بها الدهوان وهي :

الشعر دهوان العرب أيضاً وعنوان الأدب
لم أعد فيه مفاخري ومديح آبائي النجب
ومقطعات ربما حليت منهن الكتب

(١) استد ساعده وتسدد على الرمي استقام :

أعله الرماية كل يوم فلما استد ساعده رمانى

(٢) نهض وبرز . (٣) الملة الدين .

(٤) مطبوع طبعاً رديئاً وفيه كثير من التصحيف والتحريف .

لا في المديح ولا الهجاء ولا الممجون ولا اللعب
 فبدأت أكبره وأعتقد أن الأفق الذي يرنو إليه غير
 الآفاق التي ينظر إليها سواء من الشعراء : فإنه بعد أن
 عرف في البيت الأول قيمة الشعر عند العرب من الناحيتين
 التاريخية والأدبية ذكر أنه اقتصر فيه على مفاخره ومدح
 آبائه ومقطعات رباً^(١) بها عن مدح غيرهم وعن الهجاء والمجون
 واللعب ، فكأنه رأى في مدح غير آبائه تزلفاً وفي الهجاء
 سفهاً وفي المجون خلاعةً وفي اللعب عبثاً يحيط كل ذلك من
 قدره وشرف نفسه .

نعم رأيت مرة في أول شبابه يسحب رباطه^(٢) إلى حانة
 خمار يطلب فيها اللهو دون أن يرى في ذلك عاراً على
 فتى مثله :

تواعدنا لا آذار بمسعى غير مختار
 وقمنا نسحب الرباط إلى حانة خمار
 فلم ندر وقد فاحت لنا من جانب الدار
 بخمار من القوم نزلنا أم بعطار

(١) رفعها عن مدح غيرهم ولم يرضها إلا لهم .
 (٢) الرباط جمع رباطة وهي هنا الثوب الرقيق .

وقلنا أوقد النار لطرّاف وزوّار
وما في طلب اللهو على الفتيان من عار
ثم لم أزه فعل مثلها فكأنها جهلة فتوّة وانقضت ، فقد
حاد عن طريق الشراب واللهو إلى سبيل المجد والبأس والجود :
لئن خلّق الأنام لحسوّ كأسٍ ومزمار وطنبور وعود
فلم يخلّق بنو حمدان إلّا للمجد أو لبأس أو لجود
وأنف من أن يُعرف بالمдах أو بالشاعر إذا أُريد به
المдах المتزلف أو النديم الموانس :

نطقت بفضلي وامتدحت عشيرتي فلا أنا مداح ولا أنا شاعر
وفضّل أن يُعرف بربّ السيف :

وصنّعتي ضرب السيوف وإنني متعرّض في الشعر بالشعراء
قرأت دهبان أبي فراس كلّه وعرضت على ذهني حالائه
المختلفة التي كان يدل عليها شعره : فكنت تارة أنصوّره شاعراً
شريفاً واقفاً بين قومه حاملاً لواء عزمهم منادياً بقوتهم ومنعتهم :
لقد علمت سرّاة الحي أنا لنا الجبل الممنع جانباه
بني الراغبون إلى ذراه ويأوي الخائفون إلى حماه
وتارة أنصوّره واقفاً وحده معتداً بنفسه يفخر بعلوّ همته :

إذا ما العز أصبح في مكان سموت له وإت بعد المزار

كيف كنت
أنصور
أبا فراس

وآونة يتراءى لي فارساً شجاعاً قد اعتلى متن فرسه
واعتقل رمحه وجرّد سيفه وهجم على الروم بزغزع كتابهم
ويزق صفوفهم ويقول :

تطالبني بيض الصوارم والقنا بما وعدت جدّي في المخابيل
ومرة أراه أسيراً على أبواب « خرشنة ^(١) » مُحاطاً بأعدائه
ولكنه شامخ الرأس رافع الجبين يُشدّ هذه الأيات :

إن زرت خرشنة أسيراً فلقد حلت بها مغيراً !
ولقد رأيت النار تند تنهب المنازل والقصورا
ولقد رأيت السبي يح لمب نحونا حواً وحورا
فختار منه الغادة ال حسناء والظبي الغريرا
إن طال ليلى في ذرا ك فقد نعمت به قصيرا
ولئن لقيت الحزن فيه لك فقد لقيت بك السرورا
ولئن رُميت بمحادث فلا لفين له صبوراً
من كان مثلي لم يمت إلا قتيلاً أو أسيراً !

ومرة أخرى أشاهده في مقر أسره يرسف في قيده
وقد أبلت الهموم جسده ولوحت وجهه وهو يناجي حمّامة كانت
تنوح بالقرب منه :

(١) بلد للروم قرب ملطية - معجم البلدان .

أقول وقد ناحت بقربي حمامة أيا جارتا هل تشعرين بحالي ؟
 معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى ولا خطرت منك الهموم يبال
 أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا تعالى أقاسمك الهموم تعالى^(١)
 تعالى تروني روحاً لدي ضعيفةً تردد في جسم يُعذب بالي
 أضحك مأسور ونبيكي طليقة ويسكت محزون ويندب سالي ؟!
 لقد كنت أولى منك بالدمع مقلةً ولكن دمعني في الحوادث غالي !!

قرأت الدهوان على هذا النحو وتصورت صاحبه على هذه
 الحالات المختلفة ، فوجدته لم يترك الفخر في واحدة منها حتى
 في حالة الأسر التي نُذِل الجبابرة : فهو إن حلَّ خرشنة أسيراً
 فلقد حل بها قبل ذلك مغيراً ، ولئن رُمي بجاذب فسيلفي له
 صبورا ، ومن كان مثله في شجاعته وإقدامه فلا يموت إلا
 قتيلاً أو أسيراً ؛ ووجدته في مناجاة الحمامة يختم حديثه بهذه
 الجملة التي تسدُّ مسدَّ قصيدة كاملة في الفخر « ولكن دمعني
 في الحوادث غالي !! » .

وقد أبقت قراءة شعره في نفسي أثرين عميقين لا أظنهما
 يزولان منها في المستقبل مهما طال أمدّه :

أثر شعر أبي
 فراس في نفسي

(١) قال في المصباح : تعالَ فعل أمر متصل به الضمائر باقياً على فتحه وربما
 ضُمّت اللام مع جمع المذكر السالم وكسرت مع المؤنثة .

الأثر الأول عطف وحنان على هذا الشاعر الشاب الذي
لم يُمتّع طويلاً بشبابه ، عطف وحنان شديدان أبقتهما في
نفسي روميانه وهي أرق شعره وأشدّه تأثيراً في النفس ، ومن
يقرأ له القصيدة التي مطلعها :

يا حسرة ما أكاد أحملها آخرها مُزعج وأولها

ولا يشاركني في العطف عليه بل والبكاء له ؟

الأثر الثاني إكبار وإجلال له أبقتهما في نفسي
فخرياته الصادرة عن روحه الشريفة ، فقد كانت مثلاً صادقاً
لسودده وشجاعته وعلو همته .

وضعت دهبان أبي فراس بعد أن فرغت منه وتناولت
دهبان أبي الطيب وكنت قد قرأت أكثره في السنة الدراسية
الأولى ، تناولته لأبحث فيه عن الشعر الفخري خاصة ،
فوقع نظري على خمسة أبيات قيل أنشدتها في صباه منها
هذا البيت :

أَظُنُّ عَنْكَ تَشْبِيهِي بِمَا وَكَأَنَّهُ فَمَا أَحَدٌ فَوْقِي وَلَا أَحَدٌ مِثْلِي !

فقلت في نفسي : شاعرٌ ناشئٌ يُعجِبُ الناسَ به ويلهجون
بتشبيهه فيأبى عليهم هذا التشبيه لأنه لم يرَ أحداً فوقه بل
ولا أحداً مثله ، شاعرٌ هذا شأنه وهو في ريع صباه لا شك

ديوان
أبي الطيب

في أنه حائز لصفات ومزايا كريمة ورثها عن قومه وكسبها في نشأته حملته على العجب بنفسه والفخر بعقريته ، لذا رأيت من الواجب قبل البحث في شعره الفخري ومقابلته بشعر أبي فراس أن أذكر كلمة عن نسبه والطور الأول من أطوار حياته :
 أبو الطيب هو أحمد بن الحسين الجعفي ، يرجع في نسبه من ناحية أبيه إلى سعد العشيرة إحدى قبائل مذحج المشهورة بالفصاحة وحسن البيان ، ومن ناحية أمه إلى همدان التي اعترفت لها بالشجاعة والفروسية ، فهو يمازي من الناحيتين ، عربق في العروبية ، متصل النسب بقبائل لها شهرة في ميدان الفصاحة وحلبة الفروسية ، متحدر من قوم دأبهم خوض الغدرات واقتحام الأخطار حتى كأن نفوسهم تروى السكنى في الأجساد عاراً تأنف منه :

أبو الطيب
ونشأته

وإني لمن قوم كأن نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظم
 وُلد سنة ٣٠٣ في الكوفة مدينة اللغة والشعر والأدب ، فتعلم فيها القراءة والكتابة ، ولازم أهل العلم يأخذ عنهم ، وتردد على الوراقين يقرأ ما يقع تحت يده من الكتب حتى خصل من وراء ذلك شيئاً غير قليل من اللغة والأدب والأخبار ، ثم سافر مع والده إلى الشام ينتقل بين باديتها وحضرها ويختلف

إلى علماء اللغة والنحو يأخذ من علمهم ويُسمعهم من شعره ،
ثم رأى أن سعة العلم باللغة لا تكون إلا بالمعيشة في البادية ،
فخرج إلى منازل بني كلب فأقام بينهم مدةً يصحبهم في
غزواتهم ويُشدّهم أشعاره ويأخذ عنهم اللغة حتى أحاط بغريبها
وحوشيّها ، وانطبعت صورة البادية في نفسه انطباعاً ظهر أثره
على شعره ولازمه طول حياته ، ثم رجع إلى الشام يضرب
في مناكبها التماساً للرزق ، ويتنقل بين مدنها يمدح من يؤمل
نداه إلى أن اتصل بأبي العشائر الحمداني عامل سيف الدولة
على أنطاكية ، فأكرمه وعرف منزلته في الشعر والأدب ، ثم
عرّف به سيف الدولة فأخذه معه إلى حلب ، وهناك أكرم
مثنواه وأجازته بأسنى الجوائز ومالت نفسه إليه ، فسلمه إلى
الرؤاض فعمله الفروسية والطراد والمثاقفة ، وصحب سيف الدولة
في بعض غزواته ومدحه بقصائد كثيرة زادت في شهرته وخلّدت
اسمه في صفحات التاريخين : الأدبي والحربي .

هذا هو أبو الطيب وهذه هي نشأته ، فهل في طبيعته
التي ورثها عن أجداده وهل في نشأته التي نشأ عليها ما يجعله
على إكبار نفسه والتفاخر بها على سواه ؟

بواعث الفخر
في أبي الطيب

فإذا علمنا أن قومه الذين تحدر منهم كانوا لسان العرب
وأحلاس الخيل ^(١) وأن للدم تأثيراً في العبقریات فلا نستعبد
انتقال موهبة الفصاحة وطبيعة الشجاعة منهم إليه على سبيل
الإرث ، وإذا علمنا أنه نشأ نشأة صالحة حصل فيها لغة واسعة
وأدباً جمّاً وفروسية مهما كانت درجتها ، إذا عرفنا هذا كله
علمنا أن بواعث الفخر فيه تالدة موروثه وطارفة مكسوبة .
وجد نفسه فرعاً لأصل كريم جامعاً لصفات ومزايا حسنة
تُعَلِّي قدر صاحبها وترفع من شأنه حتى في مجالس الملوك ،
فتكوّنت فيه أخلاق الكبر والأنفة وعزة النفس وشدة الطموح
إلى الرئاسة وما تدعو إليه هذه الأخلاق من التزام جانب
الشهامة والعفة والصبر وقوة العزيمة ، فأعجب بنفسه إعجاباً شديداً
استولى على مشاعره وملك عليه لُبّه حتى صرّح به وبين سببه :
إن أكن مُعْجَباً فَعُجِبَ عَجِيبٌ لم يجد فوق نفسه من مزيد !
أنا تراب الندى وربّ القوافي وسمام العدى وغيظ الحسود
ولكنه بالغ في البيت الأول وادعى خلاف الواقع في
بعض البيت الثاني ، لأنه إن سلمنا بأنه رب القوافي وسمام

(١) الآلفون لركبوها ، والاحلاس في الاصل جمع جلس وهو مسح

العدى وغيظ الحسود فلا نسلم بأنه كان في حال من أحواله
 ترباً للندى لأنه كان جدياً حريصاً على المال لما ذاقه في شبابه
 من ألم الفقر والفاقة ، لذا تمسك باطمئنان نفسه إلى صدقه
 وبانجذابها إليه حين تسمعه يفتخر بأدبه وشعره لأنه أديب وشاعر :
 أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

أمثلة من نثره
 الصادق

وما الدهر إلا من رُواة قصائدي اذا قلت شعراً أصبح الدهر مُنشداً
 أو بعزة نفسه وصبره لأنه كان عزيز النفس صبوراً في
 أكثر مواقفه :

فلا عبرت بي ساعة لانعزني ولا صحبتني مهبجة تقبل الظلما

قد هوّن الصبر عندي كل نازلة ولين العزمُ حدَّ المركب الحشن
 أو بتمرسه بالآفات وإقدامه على الأخطار لأنه لاقى في
 حياته من الخطوب وركب من الأخطار ما يسوغ له الفخر بذلك :
 تمرست بالآفات حتى تركتها نقول أمات الموت أم دُعر الذعر
 وأقدمت إقدام الأتي كأن لي سوى مهجتي أو كان لي عندها وتر
 أو بسعة آماله وعظم مراده لأنه كان واسع الآمال
 عظيم المراد :

ولكن قلباً بين جنبيّ ماله مدى ينتهي بي في مراد أحده
أو بعفته لأنه كان عفيفاً حقاً صرفته مطالب المجد والعظمة
عن التلهي بالنساء :

وترى المروّة والفتوّة والأبوّة في كلّ مليحة ضرائها
وفي هذا المعنى وبنفس الأسلوب يقول أبو فراس :

كان الحجا والصون والعقل والتقى لديّ وربات الحجال ضرائر
فأشبههما في التزام العفة ! ثم ما أشبههما في أسلوب التعبير عن هذا المعنى !
فهل سرق أحدهما من الآخر ؟ أم كان ذلك من الصور والتعابير الشائعة التي
لا يختص بها شاعر دون غيره ؟ أرجح الاحتمال الثاني لأنني لا أظن هذين
الشاعرين المعروفين بأنفتهما واعتدادهما بأنفسهما بنحطان إلى أن يسرق
أحدهما من الآخر مع ما يحمل من العوجدة عليه ، ولو حاولت التسليم بالاحتمال
الأول لردّني عنه شدة الشبه بين البيتين إذ لا يعجز أبو الطيب ولا أبو فراس
عن أداء هذا المعنى بغير هذه الصورة .

تشعر وأنت تقرأ مثل هذه الأبيات لأبي الطيب بشي
من الروعة في نفسك تحملك على إكباره ، ولكنك لا تشع
بشي من ذلك حين تسمعه يُغرق في الإعجاب بنفسه ويسرف
في الفخر بها إلى أبعد من الحد المعقول :

أيّ محل أرتقي أيّ عظيم أنقي ؟

وكلّ ما قد خلق الله وما لم يخلق

مُحتقر في همتي كشجرة في مفرقي !

شدة عجب
بنفسه

أو تسمعه يدعي ما ليس له ويغالي في وصف قدرته
غلواً شديداً :

ادعائه ما ليس
له وغلوه في
وصف قدرته

سأطلب حتي بالقنا ومشايخ كأنهم من طول ما التشموا مرد
وطعن كأن الطعن لا طعن عنده وضرب كأن النار من حره بردا

فما هو هذا الحق الذي له ؟ وأنى له هؤلاء المشايخ الذين

سيطلب بهم هذا الحق الموهوم ؟ وأنى له مثل هذا الطعن

والضرب اللذين غالى في وصفهما وهول بشدتهم أكثر من

عنترة وعمرو بن معديكرب ؟ وهل فعل شيئاً مما توعد به ؟

لا شك في أن حب العظمة الذي تمكن في نفسه واستولى

على مشاعره هو الذي حمله على هذا النوع من الفخر المجوج .

وهو وإن فخر كثيراً بنفسه فلم ينس الفخر بقومه :

وإني لمن قوم كأن نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظام

نخره بقومه

وقد يجعل نفسه مصدر كل شرف لحق بهم :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا يجدودي

ثم يرى أن كلامه هذا قد يشعر بقلّة شرفهم فيستدركه بما

يجعلهم به نخر العرب كلهم :

وبهم نخر كل من نطق الضا دوعوذ الجاني وغوث الطريد

وهذا البيت أراه آية في الروعة وجمال الصورة لولا ما فيه

من الغلو الشديد ، وما أُلجأه إلى ذلك سوى الإسراف في
المباهاة بشرف نفسه والإعجاب بها إلى غير حد ؛ فانظر إلى
قول أبي فراس فيما يشبه هذا المعنى :

نخر أبي فراس
بأسلافه

فإن يَمْضُ أشياخي فلم يَمْضِ مجدها ولا دَثُرَتْ تلك العلى والمآثر
نَشِيدَ كما شادوا ونَبِيَّ كما بنوا لنا شرف ماضٍ وآخر غابر
تجده يفخر بخلود مجد أسلافه وبأنه سيَبني منه مثل ما بنوا
فيضم إلى سالف الشرف آتفه ، كل ذلك مع اجتناب الغلو
في الفخر والبعد عن التكلف في التعبير .

نخر أبي فراس
نومي

زد على ذلك أن فخره بقومه وأسرته كان أكثر من
فخره بنفسه شَأْنُ الشعراء الأقدمين الذين كانت عنايتهم
بمفاخر قبائلهم تشغلهم عن الاهتمام بمفاخرهم حتى كأنهم لا
يشعرون لأنفسهم بوجود خاص ، فقلَّ أن تراه يفخر
بنفسه دون أن يذكر قومه ويستمد من مآثرهم
وأمجادهم ، وإذا أردت مثلاً لذلك فاقرأ قصيدته الرائية
التي خص بها رجال أسرته وعشيرته ، وهي طويلة تربو على
مِئتي بيت ، سار فيها على أسلوب مطبوع بطابع البساطة المستعذبة
واستهلها بالغزل (الصناعي) على النمط المعروف عند شعراء
ذلك العهد ، ثم تخلص منه تخلصاً حسناً بيئتين أظهر فيهما صيانه

وعفته عن اللذة مع قدرته عليها :

ولي فيك من فرط الصبابة أمر ودونك من حسن الصيانة زاجر
عفافك غيٌّ إنما عفة الفتى اذا عفَّ عن لذاته وهو قادر

ثم بدأ بنفسه ففخر بهمته وشجاعته وقوة عزمه :

نفى الهمَّ عني همّةٌ علوية وقلب على ماشئت منه مؤازر
وأسمرُ مما يُنبِت الخطُّ ذابل وأبيضُ مما تطبع الهندُ باتر
وقلب يُقرُّ الحربَ وهو محارب وعزمُ يُقيمُ الجسمَ وهو مسافر

ثم ارتقى إلى ذكر أجداده وبيان مآثرهم في موطن
الكرم والسياسة والمجد :

فجدي الذي لمَّ العشيرةَ جوده وقد طار فيها للتفرق طائر
تحمل قتلاها وساق دياتها حمولٌ لما جرَّت عليه الجرائر
وجدي الذي ساس الديار وأهلها وللدهر ناب فيهما وأظافر
ثلاثة أعوام يُكابد محلها أشمٌ طويل الساعدين عراعر^(١)
فأبوا يجدوا وآب بشكرهم وما فيهما في صفقة المجد خاسر^(٢)

ثم عطف إلى ذكر أعمامه ووقائعهم في أعدائهم :

وعمي الذي أَرَدَى الكُماة وفانكا وما الفارس القتال إلا المجاهر

(١) الاشم السيد ذو الأنفة ، والعراعر الشريف .

(٢) الصفقة العقد .

وعمي الذي سلت بنجد سيوفه فروّع بالغورين من هو غائر

أولئك أعمامي ووالدي الذي حمى جنبات الملك والملك شاغر
ثم عدد مناقب والده ووقائعه ، وانتقل بعد ذلك إلى مدح
ابن عمه سيف الدولة فأطنب ، ولكنه لم يهمل نفسه في هذا
المدح حتى لا يُرمى بالتزلف ولا يُوصف بالمداح ، فذكر أن
فخره صنو فخره ، وأنه يساهمه في عليائه ويشاطره ، وأن له
معه أياماً ومواقف كان مكانه منها بين الفضل ظاهرة :

ألا قل لسيف الدولة القرم إنني على كل شيء غير وصفك قادر
فلا تلزمني خطة لا أطيقها فمجدك غلاب وفضلك باهر
ولولم يكن نخري وفخرك واحداً لما سار عني بالمدائح سائر
ولكنني لا أغفل القول عن فتى أساهم في عليائه وأشاطر
وعن ذكر أيام لنا ومواقف مكاني منها بين الفضل ظاهر
وبعد أن سرد مناقب سيف الدولة ووقائعه في الروم
بأسلوب قصصي جميل انتقل إلى ذكر إخوته وبعض رجال
قومه ، فذكر أسماءهم وأيامهم التي اشتهروا بها ثم ختم القصيدة
بهذا البيت :

نطقت بفضلي وامتدحت عشيرتي فلا أنا مداح ولا أنا شاعر !

سبب كثرة
الفخر القومي
في شعر أبي
فراس وقلته في
شعر أبي الطيب

ولكن إذا عرفنا التفاوت الكبير في شرف النسب بينه
وبين أبي الطيب فلا نستغرب كثرة الفخر في شعره بأسرته
وأبجاده وبقومه وما أثرهم .

عرفنا أن أبا الطيب متحدر من قبائل يمانية عريقة في
العروية معروفة بالفصاحة والفروسية ، ولكننا لم نعرف لأبائه
الذين يصلونه بتلك القبائل أمجاداً أو مآثر يُذكرون بها
وَيُمدحون عليها ، وأظن أبا الطيب نفسه لم يعرف لهم
شيئاً من ذلك ، ولو عرفه لما أغفل ذكره والمباهاة به ولما
قصر أكثر نخره على نفسه .

أما أبو فراس فقد أعلمنا أنه من بيت رفيع العمد بعيد
مذاهب الاطناب :

لنا بيت على عتق الثُّرَيَّا بعيد مذاهب الأطناب سامي
وعرفنا بأبيه وأعمامه وأجداده ، وأنبأنا بأبجاده ومآثرهم
في قصيدته الرائية الآتفة الذكر ، والتاريخ نفسه يؤيد ذلك .
وعرفناه من أسرة أمراء يوثقون في نسبهم إلى أشهر
قبائل ربيعة وهي تغلب قبيلة المهلهل وعمرو بن كاثوم الشاعرين
الفخوريين اللذين ملأ بوقائعهما ومفاخرهما صفحات كثيرة من
تاريخ العرب القومي والأدبي ، لذلك لا نعجب إذا رأينا

يُكْثِرُ مِنَ الْفَخْرِ بِأُسْرَتِهِ وَقَوْمِهِ وَيَنْحُو نَحْوَ شَاعِرِي تَغْلِبَ فِي
الْمِبَاهَاةِ بِعِزَّةِ الْجَارِ وَمَنْعَةِ الْجَنَابِ وَحُلُولِ الْأَعَالِي وَمَا إِلَى ذَلِكَ
مِنَ الْفَضْلِ وَالتَّفْضِيلِ وَالرَّئَاسَةِ :

أَلَمْ تَرْنَا أَعَزَّ النَّاسِ جَارًا وَأَمْرَعَهُمْ وَأَمْنَعَهُمْ جَنَابًا
لَنَا الْجَبَلَ الْمَطْلُثُ عَلَى نِزَارِ حَلَلْنَا النِّجْدَ مِنْهُ وَالْهَضَابَا
تُفَضِّلُنَا الْأُنَامَ وَلَا نُحَاشِي وَنُوصَفُ بِالْجَمِيلِ وَلَا نُحَاجِي ^(١)
وَقَدْ عَلِمْتَ رُبْعَهُ بَلْ نِزَارِ بَأْنَا الرَّأْسَ وَالنَّاسَ الذُّنَابِي
أَوْ وَجَدْنَاهُ يَمِيلُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ إِلَى الْمِبَالِغَةِ كَعَمْرُو بْنِ
كَلْثُومٍ ، وَلَكِنَّهَا مِبَالِغَةٌ مَأْلُوفَةٌ مِنْ شَاعِرٍ سَرِيٍّ مِثْلِهِ يَفْخَرُ بِآلِ
سَرَاةٍ كَأَلِهِ :

إِذَا كَانَتْ مِنَّا وَاحِدٌ فِي قَبِيلَةٍ عَلاهَا وَإِنْ ضَاقَ الْخَنَاقُ حَمَاهَا
وَمَا اشْتَوَرَتْ إِلَّا وَأَصْبَحَ شَيْخَهَا وَلَا احْتَرَبَتْ إِلَّا وَكَانَ فَتَاهَا ^(٢)
وَلَا ضَرَبَتْ بَيْنَ الْقَبَابِ قَبَابَهُ وَأَصْبَحَ مَأْوَى الطَّارِقِينَ سَوَاهَا
وَهُوَ مَعَ إِكْثَارِهِ مِنَ الْمِبَاهَاةِ بِمَفَاخِرِ قَوْمِهِ لَمْ يُهْمَلْ مَفَاخِرُ نَفْسِهِ ،
أَلَمْ يَكُنْ نَفْسَهُ سَرِيًّا شَجَاعًا ؟ أَلَمْ تَشْهَدْ لَهُ نِسَاءَ بَنِي مَعَدٍّ بِالْظَّلِّ
الْمَدِيدِ وَالْكَرْمِ الْوَاسِعِ وَالْجَأَشِ الثَّابِتِ وَالطَّعْنِ السَّرِيعِ ؟ :

لم يهمل أبو فراس
مفاخر نفسه

(١) لا نحاشي لا يستثنى أحد منا ، لانحاي لا يمال اليها بالتزلف .

(٢) اشتورت تشاورت واحتربت تحارببت .

سلي عنا نساء بني معدٍ يقن بما رأين وما سمعنه
 أَلست أمدّهم لذويّ ظلّاً وأوسعهم لدى الاضياف جفنه؟
 وأثبتهم لدى الحدّثان جاشاً وأسرعهم الى الفرسان طعنه؟
 أَلست أفرّهم للضيف عينا أَلست أمرّهم في الحرب لُهنه؟^(١)
 متى مايدن من أجل كتابي بكن بين الأعنة والأسنة!
 نعم كان أمدّهم لذويه ظلّاً وأوسعهم كرماً بل وأكثّهم
 مُروءة وحفاظاً:

أنا الجار لا زادي بطيئ عليهم ولا دون مالي في الحوادث باب
 ولا أطلب العوراء منهم أُصيبها ولا عورتي للطالبين تُصاب
 وكان أيضاً أثبتهم جاشاً وأسرعهم طعنًا، فهو الذي ردّ
 غارة بني قُشير بخمسة عشر فارساً وشدّ عليهم بهذا العدد القليل
 حتى هزمهم واسترد منهم أموالاً كانوا استلبوها في طريقهم من
 عشيرة مُوالية لآل حمدان:

أيا عجباً لأمر بني قُشير أراعونا وقالوا القوم قلّ!
 وكانوا الكُثر يومئذٍ ولكن كثرنا إذ تعاركنا وقلّوا
 فولّوا للقنا والبيض فيهم وفي جيرانهم نهلّ وعلّ
 وهو الذي أثخن في بني كلاب يبالس حتى ألقوا إليه السَلَمَ

(١) اللّهنه في الأصل مايتعلل به قبل الغداء.

وأَنوهُ طائعين :

سلي عنا سَراة بني كلاب ببالس^(١) عند مُشتَجَرِ العوالي
لقيناهم بأسِاف قصار كفين مؤونة الأَسَل الطوال
وهو الذي ثبت على حرب الروم ثباتاً عجيباً حتى صارت
الحرب طعامه وشرابه :

فلا نصفن الحرب عندي فإنها طعامي مذ بعت الصبأ وشرابي
وهو الذي منع بعزه ومجده فلم يستطع أعداؤه الانتصاف منه :
وكيف ينتصف الأعداء من رجل العز أوله والمجد آخره !

وهو الذي لم يَغضَّ الأسر من إِبائِهِ وعِزة نفسه :

ماغض مني حادث والقرم قرم حيث حلّا
أنيّ حللت فإنما يدعونني السيف المحلى
فلئن خلصت فإنني شَرَقَ العِدى طفلاً وكهلاً
ولئن قُلت فإنما موتُ الكرام الصيْدِ قتلاً

ولم تفارقه هذه الكبرياء وعِزة النفس طول حياته وفي
جميع مواقفه حتى تجاه ابن عمه أمير البلاد وسيد آل حمدان .
عُرِضَتْ عَلَى سيف الدولة خيول وأبناء أخيه ناصر الدولة
وأبو فراس حاضرون ، فاختار كل منهم ما استحسِنه منها إلا

(١) بلدة بالشام بين حلب والرقّة — معجم البلدان .

أبا فراس ، فاغتاز منه سيف الدولة وعاتبه ، فأجابه بقصيدة
كلها ترفع وشمم واعتداد بالنفس ومباهاة بالمكانم :

ويعاف لي طمع الحريص أبو تي ومروءتي وقناعتني وعفائي في
ما كثرة الخيل الجياد بزائدي شرفاً ولا عدد السوام الضافي
ومكارمي عدد النجوم ومنزلي مأوى الكرام ومنزل الأضياف
لا أقنتني لصروف دهري عدة حتى كأن صروفه أحلافي
خيلي وإن قلت كثير نعمها بين الصوارم والقنا الرعاف
شيم عرفت بهن منذ أنا يافع ولقد عرفت بمثلها أسلافي !

وهنا أذكر بهذه المناسبة حادثتين وقعتا لأبي الطيب لا يقع
مثلها عادة ممن كان مثله في ترفعه وشممه :

موقفان لأبي
الطيب ينافيان
الترفع والشمم

قال أبو الفرج البيهقي : « استدعى سيف الدولة في إحدى الليالي
بدرة فشققها بسكين الدراة ، فمد ابن خالويه طيلسانه فخنا له فيه مقداراً
صالحاً ، ومددت ذيل ذراعي فخنا لي جانباً ، والمتنبي حاضر وسيف الدولة
ينتظر منه أن يفعل مثل فعلنا فما فعل ، فغاظه ذلك فنثرها كلها على
الغلمان ، فلما رأى المتنبي أنها فاتته زاحم الغلمان يلتقط معهم ، فغمزهم
عليه سيف الدولة فداسوه وركبوه وصارت عمامته في رقبته ، فاستحيا
ومضت به ليلة عظيمة . »

وقال أبو بكر الخوارزمي : « حضرت عنده يوماً بحلب وقد أحضر
ملا من صلوات سيف الدولة ، فصب بين يديه على حصير قد افترشه
ووزن وأعيد في الكيس ، وإذا بقطعة كأصغر ما يكون من ذلك المال
قد نخلت نخل الحصير ، فأكب عليها بمجامعها ينقرها ويعالج استنقاذاً

ويشتغل بذلك عن جلسائه حتى توصل إلى إظهار بعضها ، فقال متمثلاً
بقول قيس بن الخطيم :

تبدت لنا كالشمس بين غمامة بدا حاجب منها وضنت بحاجب
ثم استخرجها وأمر بإعادتها إلى مكانها من الكيس ، فقال له بعض
جلسائه : أما يكفيك ما في هذه الاكياس حتى أدليت إصبعك لأجل
هذه القطعة ؟ فقال إنها تُحضر المائدة . ١

فأين هذا النزول من أبي الطيب في مجلس الأمير إلى
مزاحمة الغلمان يلتقط معهم حتى يدوسوه ويركبوه ؟ وأين هذا
الحرص الشديد على قطعة صغيرة متخللة خلل الحصير يعاني
استخراجها بنفسه بحضرة جلسائه ويشبه طرفها بحاجب الشمس
ثم يقول في قيمتها إنها تُحضر المائدة ؟ أين هذا كله من
ترفع أبي فراس وشممه ؟ !

مواقف شريفة
لأبي الطيب

إنني لا أنكر أن أبا الطيب أظهر في كثير من المواقف
تبرعاً وشمماً يذكران له كترفعه عن مدح ابن كيغلغ الرومي
الذي كان يحافظ على الطريق في طرابلس ، واشتراطه على سيف
الدولة حين اتصاله به أن لا يكلفه ثقل الأرض بين يديه ،
وموقفه يوم ألقى أمامه قصيدته المشهورة التي أولها :
واحر قلباه ممن قلبه شيم ومن بجسمي وحالي عنده سقم^(١)

(١) الشيم البارد .

ثم مفارقتة له وحرمان نفسه من صلاته الجزيلة وذلك حين صار
 يهان في مجلسه وهو لا يغضب له ولا يتحامي العيب به ، ثم امتناعه
 أخيراً عن العودة إلى حضرته مع نزول سيف الدولة إلى إنفاذ
 ابنه اليه بهدية سنوية وإلى الكتابة إليه بخطه يسأله المسير اليه .
 ولكن هاتين الحادثتين تحملا نتي مع ذلك على القول بأن
 حرصه على جمع المال كان أشد من حرصه على خلقي الترفع
 والشعم ، وقد قالوا في تعليل هذا الحرص : إن الألم الذي
 قاساه في شبابه من الفقر والتعب الذي تكبده بعد ذلك في
 جمع المال والحسد الذي عانى مضضيه وأذاه في هذا السبيل
 كل ذلك أهاب به إلى شدة الحرص على المال ليتخذه جنة
 يتقي بها شماتة الأعداء وغدر الزمان .

تعليل حرصه
 على المال

وروا أنه سئل عن علة بخله فقيل له : قد شاع عنك البخل في
 الآفاق حتى صار مثلاً وأنت تمدح في شعرك الكرم وأهله وتذم
 البخل ، ألسنت القائل :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

ومعلوم أن البخل قبيح ومنك أقبح لأنك تتعاطى كبر النفس وعلو
 الهمة وطلب الملك والملك ينافي سائر ذلك ،

فقال : إن البخل سيئاً وذلك أني أذكر وقد وردت في صباي من
 الكوفة إلى بغداد ، فأتخذت خمسة دراهم في جانب مندلي وخرجت أمشي في
 أسواق بغداد ، فمررت برجل يبيع الفاكهة ، فرأيت عنده خمسة من البطيخ

باكورة ، فاستحسنها ونويت أن أشتريها بالدراهم التي معي ، فتقدمت إليه وسأومته ثمنها ، فقال لي بازدراهم اذهب فليس هذا أكلك ، فتماسكت معه وقلت أيها الرجل دع ما يغيظ واقصد الثمن ، فقال ثمنها عشرة دراهم ، فلشدة ما جبهني به لم أستطع أن أخاطبه في المساومة ، فوقفت حائراً ودفعت له خمسة دراهم فلم يقبل ؛ وإذا بشيخ من التجار قد مرّ بنا ، فوثب إليه صاحب البطيخ ودعائه وقال يا مولاي ها بطيخ باكورة باجازتك أحمله إلى منزلك ، فقال الشيخ ويحك بكم هذا ؟ فقال بخمسة دراهم ، فقال بل بدرهمين ، فباعه الخمسة بدرهمين وحملها إلى داره ودعاه له وعاد فرحاً مسروراً ؛ فقلت يا هذا ما رأيت أعجب من جهلك ! استمت علي في هذا البطيخ وفعلت فعلتك التي فعلت ، وكنت أعطيتك في ثمنه خمسة دراهم فبعته بدرهمين محمولا ! فقال اسكت هذا يملك مئة ألف دينار ؛ فقلت في نفسي إن الناس لا يكرمون أحداً إلا كرامهم من يعتقدون أنه يملك مئة ألف دينار ، واعتمدت أن يكون عندي مثلها ، فأنا أجد في ذلك على ما تراه حتى يقولوا إن أبا الطيب قد ملك مئة ألف دينار .

فهذه الحكاية تدل على أن حرصه هذا لم يكن مرضاً نفسياً مستولياً على عقله كحرص البخلاء الذين يكتزون المال حباً في المال ذاته وتلذذاً بمنظره واحتوائه دون أن تكون لهم من ورائه غاية أسمى منه ، فقد كان يحرص عليه لأنه يراه داعياً إلى الإكرام والتبجيل بل وأخاً للمجد ومُلَازماً له ، وقد صرح بهذا في قوله :

فلا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده
ولكن أبا فراس يخالفه في وجهة نظره هذه ، فإنه يرى

المجد في إنفاق المال لا في الحرص عليه ، ويصرّح بذلك في
معرض مدحه لأحد أجداده حيث يقول :

فأبوا يجدواه وآب بشكرهم وما منهما في صفقة المجد خاسر
ويشير إلى هذا المعنى في كل موضع من مواضع نخره
بالكرم

الترفع والشمم
في أبي فراس
وأبي الطيب

لذا أستطيع أن أقول : إن الترفع والشمم من أخلاق
شاعرنا كليهما ولكنهما في أبي فراس أقوى وأمكن ، ولعل
النشأة العالية التي نشأ عليها والمكان السامي الذي كان يتبوّؤه
هما اللذان قوّياهما فيه حتى لم يحدث أن خاناه قط ، وقد
رأيت موقفه في الترفع على سيف الدولة نفسه يوم عرض
الخيل والجواب الذي أجابه به حين اغتاز منه وعاتبه ، وإن
شئت أن تقف على مبلغ شمه فاقراً روميائه التي نظمها في
حالة الأسر وموقف الاستعطاف ، لأن هذه الحالة تذل
الأعزاء وتسحق كبرياءهم ، ولأن هذا الموقف أدق المواقف
ابتلاءً لأخلاق الرجال ومبلغ شممهم .

تأمل في هذه القصيدة التي بعث بها إلى ابن عمه سيف الدولة
في طلب الافتداء تجد مطلعها استعطافاً محضاً ثم لا ترى إلا نخرًا
بتفضيل الموت على سرّوات الخيل وبياناً للقدر وحسن الصديعة :

دعوتك للجعفن القريح المسهد
وما ذاك بخلاً بالحياة وإنها
ولكنني أختار موت بني أبي
نصوت على الأيام ثوب جلادتي
متى تخلف الأيام مثلي لكم فتى
متى تخلف الأيام مثلي لكم فتى
فإن نفتدوني نفتدوا شرف العلى
وإن نفتدوني نفتدوا لعلاكم
يطاعن عن أحسابكم بلسانه
ولما أبطأ عليه سيف الدولة في أمر الافتداء تبرم بحاله
وطول أسره فكتب إليه : « مفاداتي إن تعذرت عليك فأذن
لي في مكاتبة أهل خراسان ومراسلتهم ليفادوني وينوبوا عنك
في أمري » ، فأجابته سيف الدولة بكلام خشن وقال له :
« ومن يعرفك بخراسان ؟ » ، فثارت حينئذ نفسه الآية فكتب
إليه قصيدة يعاتبه فيها ويذكره بمآثره ومشاركتة له في
النسب ، ولم يخلها من الفخر شأنه في كل موقف من مواقفه منها :

(١) المجتدي السائل . (٢) سروات الخيل خيارها .

(٣) الملهد المغموز أو المدفوع لنله .

(٤) نجاد السيف حماته ، المقلد موضع النجاد على المنكبين .

أنكر أني شكوت الزمان وأني عتبتك فيمن عتب
 فلا تَنسَبَنَّ إليَّ الخمول عليك أقت فلم أغترب
 وأصبحت منك فإن كان فضل وإن كان نقص فأنت السبب
 وإن خُراسان إن أنكرت علّاي فقد عرفتُها حلب^(١)
 ومن أين يُنكرني الأبعدون أمن نقص جداً من نقص أب؟
 ألسنت وإياك من أسرة وبينني وبينك عرق النسب؟
 عدْ بنظرك بعد هذا إلى أبي الطيب في معتقله عقب
 ادعائه النبوة وإلقاء القبض عليه من قبل لؤلؤ والي حمص تجده
 في مبدأ هذا الاعتقال جلدأ صبوراً موطناً نفسه على الموت :
 كن أيها السجن كيف شئت فقد وطئت للموت نفس معترف
 لو كان سكتاي فيك منقصةً لم يكن الدرّ ساكن الصدف
 ثم تراه فاقد الجلد خائر العزم يستعطف الوالي بهذه الأبيات :
 أمالك رقي ومن شأنه هبات اللّجين وعتيق العبيد
 دعوتك عند انقطاع الرّجا والموت مني كحبل الوريد
 دعوتك لما براني البلاء وأوهن رجلي ثقل الحديد
 وقد كان مشيهما في النعال فقد صار مشيهما في القيود
 وكنت من الناس في محفلٍ فها أنا في محفل من قرود

أبو الطيب في
 معتقله

(١) العلي جمع عليا وهي خلاف السفلى .

نُعَجِّلُ فِيَّ وَجُوبَ الْحُدُودِ وَحَدَيَّ قُبَيْلَ وَجُوبِ السَّجُودِ
فَأَيْنَ مَوْقِفَ أَبِي الطَّيِّبِ فِي سِجْنِهِ مِنْ مَوْقِفِ أَبِي فِرَاسٍ
فِي أَسْرِهِ ؟!

أَمَّا أَبُو الطَّيِّبِ فَقَدْ تَجَلَّدَ أَوَّلًا وَصَبَرَ وَوُطِّنَ نَفْسَهُ عَلَى
المَوْتِ ، ثُمَّ لَمَّا طَالَ سِجْنُهُ فَقَدْ جَلَّدَهُ وَخَانَهُ صَبْرُهُ فَنَزَلَ إِلَى
الصُّورَةِ الَّتِي رَأَيْتَهَا مِنَ الْاسْتِعْطَافِ ، وَلَكِنْ إِذَا رَاعَيْنَا صِغَرَ
سِنِّهِ وَقَتْنِذِ وَحِدَاثَةِ عَهْدِهِ بِالْدَّهْرِ وَصُدْمَانِهِ وَاسْتَهْدَافَهُ لِلْقَتْلِ فِي
اللَّحْظَةِ الَّتِي يَعْنُ لِلْوَالِي فِيهَا إِقَامَةُ الْحَدِّ عَلَيْهِ — إِذَا رَاعَيْنَا
ذَلِكَ عَذْرَانَاهُ .

عودة إلى أبي
فراس في الأسر

وَأَمَّا أَبُو فِرَاسٍ فَلَمْ يَغْضُ الْأُسْرَ مِنْ إِبَائِهِ وَعِزَّةِ نَفْسِهِ ،
وَإِنْ اسْتَعْطَفَ فَلَمْ يَسْتَعْطَفْ سِوَى ابْنِ عَمِّهِ أَمِيرِ الْبِلَادِ وَقَدْ
أُسِرَ فِي سَبِيلِ الذَّبِّ عَنْ ثَغُورِهِ وَحِمَايَتِهَا ، فَكَانَ مِنْ حَقِّهِ عَلَيْهِ
أَنْ يَفْتَدِيَهُ ، لِذَلِكَ لَمْ يَنْزِلْ فِي اسْتِعْطَافِهِ إِيَّاهُ إِلَى دَرَكِ
الرَّقِّ وَالْعُبُودِيَّةِ .

نَعَمْ كَانَتْ نَفْسُهُ تُعَذِّبُ مِنْ مَهَانَةِ الْأُسْرِ وَيَتَبَرَّمُ
بِحَالِهِ فَيَقُولُ :

مَا لِلْعَبِيدِ مِنَ الَّذِي يَقْضِي بِهِ اللَّهُ امْتِنَاعَ
ذَدَّتِ الْأَسْوَدُ عَنِ الْفِرَا نُسْ ثُمَّ نَفَرَسَنِي الضَّبَاعُ !

وبلغة رجاء والدته لسيف الدولة في أمر افتدائه وخيبتها
في هذا الرجاء ، فيذوب قلبه حزناً وحسرةً عليها ويكره نفسه
لأجلها على معاودة الاستعطاف وطلب الافتداء :

يا حسرةً ما أكاد أحملها آخرها مزرعج وأولها
عليلة بالشام مفردة بات بأيدي العدو معلّ لها
تمسك أحشاءها على حرق تطفئها والهموم تشعلها

يا واسع الدار كيف توسعها ونحن في صخرة نزلها
يا ناعم الثوب كيف تبدله ثيابنا الصوف ما تبدلها
يا راكب الخيل لو بصرت بنا نحمل أقيادنا وننقلها
رأيت في الضرّ أوجهاً كرّمت فارق فيها الجمال أجملها
قد أثر الدهر في محاسنها تعرفها تارة وتجهلها

يا منفق المال لا يريد به إلا المعالي التي يوثّلها
أصبحت بشري مكارماً فضلاً فداؤنا قد علمت أفضلها
لا يقبل الله قبل فرضك ذا نافلة عنده تنقلها
ثم يستحي من طلب الافتداء ويخشى أن ينسب بسببه
إلى الجزع وقلة الإياء فيعتذر :

لولا العجوز بمنيج ما خفت أسباب المنية
ولكان لي عما سأل من الفدى نفس أبيه

فأنت تراه في جميع أيام أسره عارفاً بقيمة نفسه بكرها
على طلب الاقتداء ، ولكنها لم تتصاغر يوماً إليه ولم يحاول
هو إذلالها بالتضرع الشائن ، بل لم ينكد بخلي قصيدة من
قصائده الاستعطافية من العتاب أو الفخر مع التحدث بالقدر
وحسن الصنعة ، وهذا لعمرى أسمى ما يطالب به أصحاب
النفوس الأبية في مثل هذا الموقف الخرج ، لاسيما والفخر
تجاه سيف الدولة نفسه والعتاب موجه إليه وحده مع أنه هو
المالك لأمر المفاداة والإطلاق من الأسر .

هذا وأوصيك لأجل الإحاطة بنواحي نخره والبلوغ إلى
أبعد مداه أن تقرأ أيضاً قصيدته الرائية التي مطلعها :

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهى عليك ولا أمر ؟

فإنها أروع قصائده الفخرية التي نظمها في حالة الأسر
وكتب لها الخلود على كرر السنين وتعاقب العصور ، أودعها
غرر مفاخره وأحسن مآثره وأكرم خصاله فقال بعد أن
فرغ من الغزل :

وإني لنزال بكل مخوفة كثير إلى نزالها النظر الشزور^(١)
 وإني لجرار لكل كتيبة معودة أن لا يُخل بها النصر
 فأصدي إلى أن ترتوي البيض والقنا وأسغب حتى يشبع الذئب والنسر^(٢)
 ولا أصبح الحي الخلف لغارة أو الجيش مالم تأته قبلي النذر^(٣)
 ويارب دار لم تخفني منيعة طلعت عليها بالردى أنا والفجر
 وساحبة الأذيال نحوي لقيتها فلم يلقها جافي اللقاء ولا وعر
 وهبت لها محازره الجيش كله ورحت ولم يكشف لأياتها ستر
 ولا راح يطغيني بأثوابه الغنى ولا بات بشيبي عن الكرم الفقر
 وما حاجتي في المال أبغي وفوره إذالم أفر عرضي ولا وفر الوفرة^(٤)
 ثم وصف حادث أسره وصفا صادقا مؤثرا اعتذر به ،
 بل استطاع أن يظهر منه دليلا جديدا على إباته العيب والذل :
 أسرت وما صحبي بعزل لدى الوغى ولا فرسي مهر ولا ربه غمر^(٥)
 ولكن إذا حم القضاء على امري فليس له بر بقيه ولا بحر
 وقال أصبحابي الفرار أو الردى فقلت هما أمران أحلاهما مرة

(١) النظر الشزور هو النظر بمؤخر العين في إعراض كنظر المباحض .

(٢) الصدى العطش ، والسغب الجوع .

(٣) الحي خلوف رجالهم غيب ليس منهم إلا من يستقي الماء .

(٤) وفر الشيء وفورا تم وكمل ووفره وفرا أنه واكمله ووفر عرضه وفرا صانه ووقاه .

(٥) الغمر بالضم من لم يجرب الأمور .

ولكنني أمضي لما لا يعينني وحسبك من أمرين خيرهما الأسر
ولا خير في دفع الردى بمذلة كما ردها يوماً بسوائه عمرو
ثم ذكر شدة أثره في أعدائه وعلو منزلته بين قومه :

يمنون أن خلوا ثيابي وإنما علي ثياب من دمائهم حمر
وقائم سيف فيهم دق فصله وأعقاب رمح فيهم حطم الصدر
سيد كرنى قومي إذا جد جدّهم وفي الليلة الظلماء يفقد البدر
ولو سد غيري ما سددت اكتفوا به وما كان يغلو التبر لو نفق الصفر^(١)

ثم ختم القصيدة بهذه الآيات الثلاثة :

ونحن أناس لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر
تهون علينا في المعالي نفوسنا ومن يخطب الحسنا لم يغلها المهر
أعز بني الدنيا وأعلى ذوي العلى وأكرم من فوق التراب ولا نفر
أعود بعد كل ذلك فأقول كلمة في أسلوب الشاعر بن
أبي الطيب وأبي فراس وطريقتهما في الفخر ولغة كل منهما
في هذا النوع من الشعر ، لأن لكل شاعر أسلوباً على قدر
طبعه وعاطفته وتصوره ، وألفاظاً يحبها فيكثر من استعمالها في
معرض الإفصاح عن أفكاره وإظهار العواطف التي تختلج في
قلبه ، مع العلم بأن لغة الفخر تناسبها الأساليب الرصينة والألفاظ
الفخمة لما لها من الروعة في النفوس ، ولأن منزلة الفخر من الشعر

الأسلوب

(١) الصفر بالضم النحاس .

كمنزلة الخطابة من النثر .

أسلوب أبي
الطيب ولغته في
الفخر

علمنا أن أبا الطيب قرأ شعراً كثيراً من تقدمه من الشعراء على اختلاف طبقاتهم ، فهل نأثر بما قرأه ؟ وهل نسج في الفخر على منوال من تقدمه ؟ لأن الفخر وحده هو الذي يعنيني في هذه الرسالة .

قابلت بين شعره الفخري وما تيسر لي الاطلاع عليه من أشعار المتقدمين أمثال المهلهل بن ربيعة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وعنترة وحسان والفرزدق وجريز وغيرهم ممن طرّقوا باب الفخر ، فلم أجده شبيهاً يذكر إلا في الصور الشائعة التي تخطر على بال كل شاعر فخور ، وهذه لا يصح أن تُنسب إلى شاعر دون آخر ، فهو إذا لم يعيد إلى الاقتباس من غيره في شعره الفخري ، بل انفرد فيه بصور وعبارات لم يعرض لها سواه . كالتصريح بالإعجاب بنفسه وبأنه عجيب واحتقار كل الخلق وتسبيحهم بشعرة في المفرق والتشبه بالأنبياء في أقوامهم وسكون اللحم والعظم ومات الموت وذعر الذعر وما إلى ذلك من الصور والألفاظ وضيغ التصغير أيضاً مما لم أعثر على مثله في فخر من تقدمه من الشعراء .

مع ذلك فقد وجدته في بعض الأخيان يحذون حذو شيخه

أبي تمام في الترديد الذي منه الخفيف كما في قوله :
 وطعن كأن الطعن لا طعن عنده وضرب كأن النار من حره برد
 ومنه الثقيل كما في قوله :

فقلقلت بالهم الذي قلقل الحشا قلاقل عيس كلهن قلاقل
 ويستحسن بعض الصور والألفاظ التي يجدها في شعره
 فينقلها ويصوغها في قوالب أخرى ثم يظهرها في ثوب غير
 ثوبها الأول ، قرأ لأبي تمام قوله :

همة نطح النجوم وجد آلف للحضيض فهو حضيض
 فأعجبه هذا المعنى فاقنبدسه وعبر عنه بقوله :

أبدأ أقطع البلاد ونجمي في نحوس وهمتي في سعود
 وأعجبه لفظ « نطح النجوم » فأخذه واستعمله في قوله :
 شرف بنطح النجوم بروقيه وعزُّ يُقلقل الأجيالا^(١)
 والاعتباس الذي من هذا النوع لا أراه معيباً ما دام
 الشاعر يستطيع أن يصوغ المعنى الذي يقتبسه في قالب جديد
 ويقدر أن يضع اللفظ الذي ينقله في الموضع اللائق به ،
 لا سيما إذا أضاف إليه معنى آخر يناسبه كما فعل أبو الطيب
 بزيادة كلمة « روقيه » وهي من لوازم المشبه به التي تكشف

صورته وتقرّبها من الأذهان ، على أنه لم يكن يهتم بانتقاء
الألفاظ ولم يكن يحفل بها لنفسها بل لأداء المعنى الذي
يريده فقط ، حتى ليُخَيَّلُ إليك وأنت تقرأ أشعاره الفخرية
أنه يرتجلها ارتجالاً ويفيض بها فيضاً ، ثم لا تستغرب ذلك
بعد أن علمت أن ما حصله من المادة اللغوية في نشأته
الحضرية والبدوية لم يحصل مثلها شاعر في عصره ، وحينئذ
تشاركني في قولي : إن أبا الطيب لا يدخل في زمرة الشعراء
الذين يُعَنَوْنَ بانتقاء الألفاظ وإن كان يقول :

شاعرُ المجدِ خدنه شاعرُ الفـ حظ كلانا ربُّ المعاني الدِّقاق^(١)

فلننتقل الآن إلى الكلام على أسلوب أبي فراس في
شعره الفخري وعلى اللغة التي استعملها في هذا الشعر .

أسلوب أبي
فراس ولغته في
الفخر

علمنا أنه شاعر شريف متحدّر من قبيلة تغلب التي
أنجبت المهلهل بن ربيعة وعمرو بن كلثوم ذينك الشاعرين
الفخوريين ، فهل تأثر شاعرنا بشعرهما ؟ وهل هذا حدوهما
في الأسلوب والألفاظ ؟

هذا ما خطر على بالي حين أردت البحث عن أسلوب
أبي فراس وألفاظه ، فقرأت أشعارهما وهي ليست بكثيرة ،

فتمثلت لي أرواح الثلاثة متجلية فيها قبل أن تتضح لي صناعتهم
الشعرية ، تمثلت لي في صورة واحدة وهي صورة سيد مهيب
الطلعة يزهو بسودده وشجاعته وسخائه ، فلم أعجب من ذلك
لأنني أعلم أن الثلاثة من أرومة واحدة^(١) تجمعهم صفات واحدة
وهي شرف النسب وقوة العصبية والشجاعة والكرم ، ثم وجدت
شبهاً قوياً في عناصر الفخر التي يفخر بها كل واحد منهم وهي
بوجه الإجمال الصفات المذكورة ولوازمها كذكر الأيام والمآثر
والاعتداد بالقوة والشجاعة والمباهاة بمنعة الجنب وعزة الجار
ونحر اللقاح ومد الجفان ، ورأيت أبا فراس يحذو حذو ابن
كلثوم في ذكر أسماء رجال الأسرة والعشيرة وأعمالهم والافتخار
بوراثة المجد عن الآباء والاجداد وبتشييد مثله واكتساب غيره
وبأخذ بعض الصور الفخرية التي يستحسنها من شعره فيتصرف
في ملامحها ويظهرها في حلة غير حلتها الأولى .

استحسن - مثلاً - هذه الصورة الفخرية التي رآها في قوله:

إذا بلغ الرضيع لنا فطاماً ثخر له الجبار ساجدينا

ولكنه وجدها مع روعتها لا تمثل الحقيقة تمثيلاً صادقاً للمبالغة

الشديدة التي نضاجها ، فصاغها على هيئة أقرب إلى الحقيقة

(١) الأرومة بالفتح وتضم الأصل .

من هيئتها الأولى وأبرزها في ثوب أرق من ثوبها الأول فقال :
إذا ولد المولود منا فإنما — الأُسنة والبيض الرقاق تمامه

مع ذلك فإنه لم يقتصر على اقتفاء أثر المهمل وابن كلثوم
فقد نظر في شعر غيرهما من شعراء العهد الجاهلي بل وشعراء
العهد الأموي ، لذلك تجد شعره كثير الشبه بشعر المتقدمين
في الأسلوب والألفاظ وصفات الفخر ، وقد قدّمتُ منه ما فيه
الكفاية لحصول القناعة ، وإن شئت الزيادة فاسمع له هذه الأبيات :

إنا إذا اشتد الزما	ن وناب خطب وادلهم
ألفيت حول بيوتنا	عُدُ الشجاعة والكرم
للقا العدى بيض السيوف	ف وللندى حمر النعم
هذا وهذا دأبنا	بودى دم ويراق دم

فهل ترى فرقاً بينها وبين الشعر الجاهلي في صفات
الفخر وروعة المعنى ورصانة الأسلوب ؟ ثم تأمل في ألفاظ
هذه الأبيات ومعانيها :

إذا مررت بواد جاش غاربه	فاعقل قلوصلك ذاك الترب واديننا ^(١)
وإن وقفت بنادٍ لا يطيف به	أهل السفاهة فاجلس فهو نادينا
نغير في الهجمة الغراء ننحرها	حتى ليعطش في الأحيان راعينا ^(٢)

(١) غارب الوادي أعلاه ، جاش زخر ، القلوصل الشابة من الابل .

(٢) نغير نسرع ، الهجمة مادون المئة من الابل أو الاربعون فما زادت .

تَجَفَّلُ الشُّولُ بَعْدَ الْخَمْسِ صَادِبَةً^(١) إِذَا سَمِعْنَ عَلَى الْأَمْوَاهِ حَادِينَا^(٢)
وَتُصْبِحُ الْكُومُ أَشْتَاتًا مَرُوعَةً^(٣) لَا تَأْمَنُ الدَّهْرُ إِلَّا مِنْ أَعَادِينَا^(٤)
وَيُصْبِحُ الضَّيْفُ أَوْلَانَا بِمَنْزِلِنَا نَرْضَى بِذَلِكَ وَيَمِضِي حَكْمُهُ فِينَا
وَنُنَاسُ أَنَّهَا لِأَبِي فِرَاسٍ مِنْ شُعْرَاءِ الْقَرْنِ الرَّابِعِ ، فَهَلْ
تُتَرَدَّدُ فِي الْحَكْمِ بِأَنَّهَا لَفَتَى مِنْ سَادَاتِ رِبِيعَةٍ^(٥) فِي الْعَهْدِ
الْجَاهِلِيِّ يَتَغَنَّى بِسُوءِ دَدِهِ وَكَرْمِهِ ؟

تأمل في بيتيه هذين :

نَارِي عَلَى شَرَفٍ تَوُجَّجَ - جِجَ لِلضُّيُوفِ السَّارِيَةِ^(٦)
يَا نَارَ إِن لَّمْ تَجْلِي ضَيْفًا فَلَسْتُ بِنَارِيَةِ !

وقابلها بيتي حاتم الطائي :

أَوْقَدَ فَإِنَّ اللَّيْلَ لَيْلٌ قَرٌّ وَالرِّيحَ يَا غَلَامَ رِيحٍ صَرٍّ^(٧)
لَعَلَّ أَنْ يُبْصِرَهَا الْمُعْتَرُّ^(٨) إِنْ جَلَبْتَ ضَيْفًا فَأَنْتَ حَرٌّ !^(٩)
فترى الأسلوب واحداً والصورة واحدة ولا تجد بينهما فرقاً
سوى أن أبا فراس يخاطب ناره ويقول لها إن لم تجلي ضيفاً

-
- (١) الشول جمع شائلة وهي الناقة التي أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر
فجف لبنها ، الخمس شر أظلم الليل وهو أن ترعى ثلاثة أيام وترد الرابع .
(٢) الكوم جمع كوماء وهي الناقة العظيمة السنام .
(٣) اشتهر شعراء ربيعة برصانة الأسلوب مع سهولة الألفاظ ورقتها .
(٤) الشرف من الأرض ما علا منها ، توجج توقد .
(٥) الليل القر البارد ، الريح الصر الشديدة الصوت أو البرد .
(٦) المعتز : الضيف الزائر أو المتعرض للسؤال .

فلست بناري وحائماً يخاطب غلامه ويقول له إن جلبت النار
ضيفاً فأنت حر .

ثم قابل بيته هذا :

إذا أمست نزاراً لنا عبيداً فإن الناس كلهم نزار

ببيت جرير :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

تجد الوحدة تامة في الأسلوب وفي الصورة : فإن
أبا فراس يعدّ استعباد نزار استعباداً للناس كلهم ، وجريراً
يعدّ غضب بني تميم غضب الناس كلهم ؛ ولا يُهمني كون
أبي فراس سرق من حاتم أو من جرير أو من غيرهما ، بل
الذي يُهمني هو إقامة الدليل على أنه استطاع مجازاة المتقدمين
من فحول الشعراء في أساليبهم الرصينة وصفات الفخر التي
كانوا يعمدون إليها ، وأنه أحسن المجازاة دون تكلف ولا
مغالاة ، وأنه لم يتأثر بأساليب المولدين من شعراء عصره ،
وأن الفخر الذي عني به كان قومياً أكثر منه ذاتياً (شخصياً)
مع العلم بأن شرف محتده وصفاء عروبه في نسبة ونشأته
كانا من أكبر العوامل التي أعانته على ذلك ، فهو من هذه
الناحية يمتاز عن أبي الطيب الذي لم يسر في طريقته ولا في

صفات فخره على الأسلوب القديم الذي سار عليه أبو فراس ،
ولم يخصص للفخر جانباً معيناً من شعره ، بل تراه مبعثراً
في أضعاف قصائده على اختلاف موضوعاتها مقروناً بالعجب
وشدة (الأثنية) ، لذا يمكنني أن أقول دون شيء من التردد :

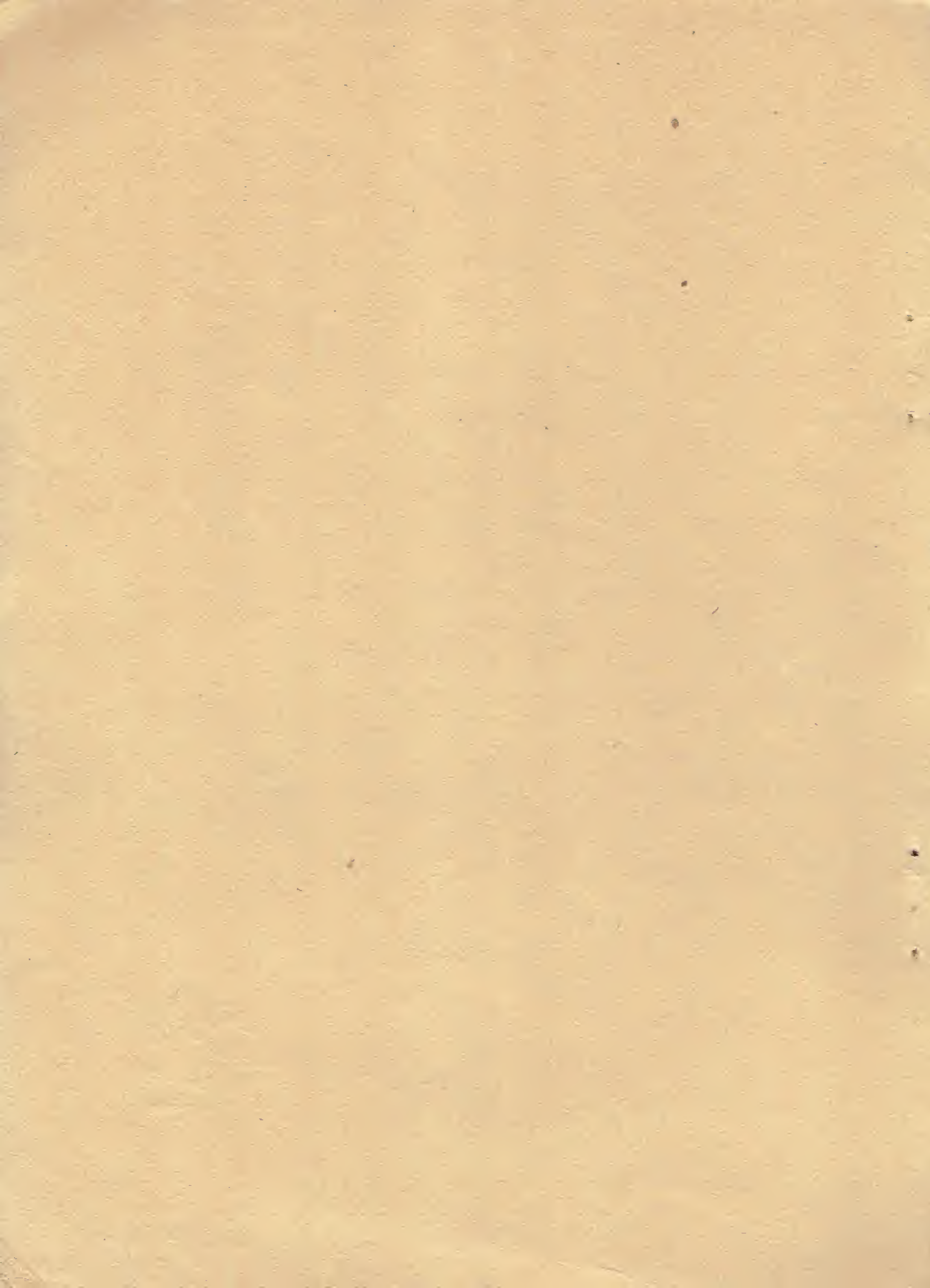
أبو الطيب
شاعر العظمة
والكبرياء

إن أبا الطيب شاعر عظيم يجابهك بالعظمة أني واجهته ،
ويريك آثار هذه العظمة في كل ناحية من نواحي شعره ،
سواء فيه الفخر والمدح والهجاء والزئاء حتى الحكم ، فهو
شاعر العظمة والكبرياء غير مدافع .

أبو فراس
شاعر المجد
والفخر

وإن أبا فراس شاعر نفور يقابلك بالفخر أني واجهته ، أنف
أبي في كل موقف من مواقفه ، فارس شجاع في كل وقعة
من وقائعه ، شري ماجد من سراة أُمّاجد لا يحملون إلا الصدور
أو القبور ، فهو شاعر المجد والفخر غير منازع .





فمن النسخة
١٥ قرناً - أوربا